الفصل الثالث
أسطورة النقاء العرقي لليهود

الصهيونية وأسطورة النقاء العرقي لليهود

الأسطورة الدينية الثالثة بعد أسطورتي : الأرض الموعودة ، وشعب الله المختار هي أسطورة النقاء العرقي لليهود ، وقصْر السامية عليهم وحدهم ، بمعنى إذا أطلقت كلمة سامية فإنها تعنى اليهود فقط ، وأن معاداة السامية تعني معاداة اليهود دون غيرهم من الشعوب السامية الأخرى . وعليه فهم يفترضون :

١- أن اليهود المحدَثين هم ورثة العبرانيين القدامى .

٢- أن دولة إسرائيل هي الوريثة الشرعية الوحيدة لمملكة داود القديمة التي قامت على أرض فلسطين .!!

و لكي يحافظ اليهود على نقائهم العرقي فإنهم عمدوا إلى :

١- تحريم الزواج بغيرهم من الأمم الأخرى .

٢- فرض العزلة الاختيارية على الجماعات اليهودية في الشتات .

لقد حرص اليهود على إثبات نسبتهم إلى سام بن نوح ، كما حرصوا على إثبات نقاء جنسهم السامي على مدى التاريخ . بأنهم لا يتزوجون ولا يزوجون إلا من كان يهوديًّا صحيح النسب إلى سام ! وهذه هي أوامر " يهوه " إلههم حفاظًا على جنسهم السامي من أن يدنَّس بأي من الأجناس الأخرى ، وبذلك لا تختلط دماء شعب الله المختار بأية دماء أخرى ، وليكونوا وحدهم – دون سائر الأمم – المستحقين للوعود الإلهية بملك أبدي لأرض كنعان ، والخلاص على يد الماشيخ في آخر الزمان .

المرجعية النصية لأسطورة النقاء العرقي لليهود

ودونك ما تستشهد به جماعة اليهود لتأكيد بقاء جنسهم ونقائه ، وصحة نسبهم إلى سام دون غيرهم من الأمم .

" إن شعب إسرائيل لن يهلك " (أرميا ٣١: ٢٦-٢٧)

" فاعلموا أن الرب إلهكم هو الله الإله الأمين الوفي بالعهد والإحسان لمحبيه وحافظي وصاياه إلى ألف جيل " (التثنية : ٧)

هذان النصان هما أساس أسطورة بقاء واستمرار اليهود ، فالنص الأول يبين أن شعب إسرائيل باق خالد لن يهلك ، أما النص الثاني فيبين أن إله إسرائيل الأمين الوفي سوف يفي بعهده لشعبه المختار إلى ألف جيل .

أما النصوص التي يستشهد بها اليهود على نقاء عنصرهم وعدم اختلاطه بدم الأغيار فهي :

" إِيَّاكُمْ أَنْ تَعْبُدُوا إِلَهاً آخَرَ غَيْرِي، لأَنَّ الرَّبَّ اسْمُهُ غَيُورٌ جِدّاً. إِيَّاكُمْ أَنْ تَعْقِدُوا مُعَاهَدَةً مَعَ سُكَّانِ الأَرْضِ، لأَنَّهُمْ حِينَ يَعْبُدُونَ آلِهَتَهُمْ مُشْرِكِينَ وَيَذْبَحُونَ لَهُمْ، يَدْعُونَكُمْ فَتَأْكُلُونَ مِنْ ذَبِيحَتِهِمْ. وَتُزَوِّجُونَ بَنِيكُمْ مِنْ بَنَاتِهِمْ، فَيَجْعَلْنَ بَنِيكُمْ يَغْوُونَ أَيْضاً بِعِبَادَةِ آلِهَتِهِنَّ." (الخروج : ٣٤)

فيحذر " يهوه " إله إسرائيل شعبه المختار من الزواج من المشركين غير شعب إسرائيل .

" ومتى أدخلكم الرب إلهكم إلى الأرض التي أنتم ماضون إليها لترثوها ، وطرَد من أمامكم سبع أمم ، أكثر وأعظم منكم ، وهم الحثيون والجرجاشيون والأموريون واليبوسيون . وأسلمهم الرب إليكم وهزمتموهم ، فإنكم تحرِّمونهم . لا تقطعوا لهم عهدا ، ولا ترفُقُوا بهم ، ولا تصاهروهم . فلا تُزَوِّجوا بناتكم من أبنائهم ، ولا أبناءكم من بناتهم ، إذ يغوون أبناءكم عن عبادتي ليعبدوا آلهة أخرى ، فيحتدم غضب الرب عليكم ويهلككم سريعا .. لأنكم شعب مقدَّس للرب إلهكم فإياكم قد اختار الرب إلهكم من بين جميع شعوب الأرض لتكنوا شعبه الخاص "(التثنية:٧)

وهذا الفصل العنصري هو الطريقة الوحيدة لمنع تدنيس العنصر المختار من الرب ، والدين الذي يربطه به . وظل هذا الانفصال عن الآخر هو القانون .

ولم يتقاعس عزرا ونحميا عقب عودتهما من المنفى في تطبيق هذا الفصل العنصري فقد مزَّق عزرا ثيابه ونتف شعر رأسه وذقنه عندما علم أن شعب إسرائيل قد تزوجوا من غير بني إسرائيل مما ترتب عليه اختلاط النسل المقدس .

يقول عزرا : " ١ جاءني رؤساء اليهود قائلين : " إن شعب إسرائيل والكهنة واللاويين ما برحوا منغمسين في رجاسات أمم الأرض كالكنعانيين والحثيين والفرزيين واليبوسيين والعموريين . ٢ ولم ينفصلوا عنهم لأنهم تزوجوا هم وأبناؤهم من بناتهم ، فاختلط النسل المقدس بأمم الأرض ، وقد كان الرؤساء الولاة أول من ارتكب هذه الخيانة . ٣ وعندما سمعت ذلك مزَّقت ثيابي وردائي ، ونتفت شعر رأسي وذقني .. ٥ وجثوت على ركبتي وبسطت يدي إلى الرب إلهي قائلا : ٦ "اللهم إني أخجل وأخزى من أن أرفع وجهي نحوك .. ١٠ فماذا نقول بعد كل ما حدث ؟ لقد نبذنا وصاياك . ١١ التي أمرتنا بها على لسان عبيدك الأنبياء قائلا : " إن الأرض التي تدخلون لترثوها هي أرض نجستها شعوبها برجاساتهم من أقصاها إلى أقصاها . ١٢ والآن فلا تعطوا بناتكم لبنيهم ولا تأخذوا بناتهم لبنيكم ولا تطلبوا سلامتهم وخيرهم إلى الأبد .. ١٤ والآن بعد كل ما جرى علينا من جرَّاء أعمالنا السيئة وآثامنا العظيمة نعود بعد ذلك ونتعدى على وصاياك ونصاهر الأمم الذين يرتكبون هذه الرجاسات " (عزرا : ٩)

وفيما كان عزرا يصلي ويعترف باكيا ومنطرحًا أمام هيكل الرب اجتمع إليه حشد كبير من الرجال والنساء والأولاد وقال شكنيا بن يحيئيل من بني عيلام لعزرا : " ٢ لقد خنَّا إلهنا وتزوجنا من نساء غريبات من أمم الأرض ، ولكن على الرغم من هذا فلا يزال هناك رجاء لإسرائيل . ٣ لذلك نبرم عهدًا مع إلهنا بأن نخرج كل النساء العربيات ، ومن أنجبن من أبناء .. ١٧ وتم الفصل بين قضايا كل الرجال الذين تزوجوا من نساء غريبات " (عزرا : ١٠)

ويقول نحميا عن اليهود " ٣٠ فطهرتهم من كل غريب " (نحميا : ١٣)

ومرض الخوف من الاختلاط ورفض الآخر قد جاوز البعد الجنسي . فرفض دم الآخر بالزواج المختلط يعني رفض دينه كذلك وثقافته أو طريقة حياته .

وهكذا فإن : " يهوه " ينفجر غضبًا في وجه من ينحرفون عن الحقيقة ، والتي لا يوجد غيرها طبعًا : " فسوفونيا " يقاتل ويحارب كل أشكال الملابس الأجنبية ، ونحميا كان ضد اللغات الأجنبية " ٢٣ وفي ذلك الزمن شاهدت يهودا ممن تزوجوا من نساء أشدوديات وعمونيات وموآبيات . ٢٤ ولاحظت أن نصف كلام أولادهم بلغة أشدود أو بلغة بعض الشعوب الأخرى ويجهلون اللغة اليهودية . ٢٥ فأَبَّتُهم ولعنتهم وضربت منهم قومًا ونتفت شعورهم ، واستحلفتهم باسم الله قائلاً : " إياكم أن تزوجوا بناتكم من بنيهم ، ولا تأخذوا بناتهم لأبنائكم ولا لكم . ٢٦ أليس بمثل هذا أخطأ سليمان ملك إسرائيل ، مع أنه لم يكن له نظير بين ملوك شعوب كثيرة ؟ لقد كان محبوبا عند إلهه ، وجعله الله ملكا على بني إسرائيل ومع ذلك أغوته النساء الأجنبيات على ارتكاب الإثم . ٢٧ فهل نتغاضى عما اقترفتموه من شر عظيم في حق إلهنا باتخاذ زوجات غريبات " (نحميا : ١٣)

ومن يخالف وصايا الرب ويتزوج بأجنبيات يتعرض للمحاكمة القاسية وتؤكد "رفقة " زوجة إسحاق وأم يعقوب هذا " ٤٦ قَالَتْ رِفْقَةُ لإِسْحقَ: «قَدْ كَرِهْتُ حَيَاتِي مِنْ جَرَّاءِ الْبَنَاتِ الْحِثِّيَّاتِ، فَإِنْ تَزَوَّجَ يَعْقُوبُ مِنَ الْحِثِّيَّاتِ بَنَاتِ هَذِهِ الأَرْضِ الْمُمَاثِلاتِ لِزَوْجَتَيْ عِيسُو، فَإِنَّ مَوْتِي خَيْرٌ مِنْ حَيَاتِي " (التكوين : ٢٧)

وصاح والدا شمشون فزعًا من زواج ابنهما من فلسطينية " ٣ فقال له أبوه وأمه أليس في بنات إخوتك وفي شعبي كله امرأة حتى تذهب وتأخذ امرأة من الفلسطينيين القُلْف فقال شمشون لأبيه بل إياها تأخذ لي لأنها حسنت في عيني " (القضاة : ١٤)

إذن تمَّ بقاء شعب إسرائيل بموجب تعهد من إله إسرائيل بعدم هلاكهم ، ولكي يتم نقاء الجنس اليهودي فلا بد من تحريم الزواج من أجنبيات ؛ لذا فإن اليهود فرضوا على أنفسهم العزلة والعيش في الجيتو منذ خروجهم من أرض فلسطين وتشتتهم في البلاد حتى يحافظوا على جنسهم السامي من دنس الأغيار !!

وقد أخذ الوجود اليهودي داخل المجتمعات القديمة وفي العصور الوسطى أشكالاً متعددة مثل : حارة اليهود في مصر ، وقاعة اليهود أو المسبتة في اليمن والمِلاح في المغرب ، ويعتبر الجيتو أشهر الأشكال الانعزالية اليهودية في العالم بحيث أصبح يطلق على سبيل التعميم على كل شكل من أشكال الحياة اليهودية الانعزالية وسط الشعوب التي عاشوا بين ظهرانيهم .

والجيتو عبارة عن حي أو عدد من الشوارع المخصصة لإقامة اليهود ، وهو يمثل مسألة حيوية بالنسبة لليهودي لا يضمن بقاءه وحسب وإنما مكانته وهويته أيضاً ومما دعم الحاجة إلى الجيتو مجموعة الشعائر اليهودية الخاصة، مثل: قوانين الطعام، وتحريم الزواج المختلط ، وعدم شرب خمر صنعها واحد من الأغيار، والختان، والنصاب اللازم لصلاة الجماعة، وعادات الدفن والمدافن وشعائر السبت [1]

إن بقاء الجنس اليهودي السامي نقيًّا لم يُدنس بدماء أخرى أسطورة تتواتر في التواريخ المتأثرة بالرؤية الصهيونية، بل نجدها دائماً مقرونة بكلمة «معجزة». ومصطلح «البقاء اليهودي» مرتبط بمصطلحات صهيونية أخرى مثل :" الاستمرار اليهودي" و" الشعب اليهودي" و" التاريخ اليهودي " و " الشخصية اليهودية "، وهي جميعاً تنبع من نموذج تفسيري واحد يفترض وجود جماعة متجانسة يُقال لها "اليهود " احتفظت بهويتها المستقلة، رغم انتقالها من مكان إلى آخر، ورغم تواجدها في أزمنة مختلفة. وعادةً ما يُقارَن هذا البقاء اليهودي باختفاء بعض الشعوب الأخرى مثل اختفاء الآراميين والبابليين، وحدوث بعض الشعوب الأخرى مثل العرب .

وهذا المفهوم، مثل غيره من المفاهيم الصهيونية، يفترض نوعاً من الاستمرار والوحدة والتجانس لا وجود له لا على مستوى النسق الديني أو على مستوى الجماعات اليهودية .[2]

([1]) د. رشاد الشامي " الشخصية اليهودية الإسرائيلية " الفصل الأول " الشخصية اليهودية في إطار الانعزالية الجيتوية " مرجع سابق .

([2]) د . عبد الوهاب المسيري " موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية " م٤ ج١ إشكالية التاريخ اليهودي مرجع سابق .

هناك اتجاه صهيوني – إذن- يؤمن بأن ثمة عرْقاً يهوديّاً مستقلاً، وأن أساس الهوية اليهودية والشخصية اليهودية هو الانتماء العرْقي . ولعل المفكر الصهيوني موسى هس هو أول من طرح تعريفاً لليهود على أساس بيولوجي أو عنصري حين ذكر أن العرْق اليهودي من الأعراق الرئيسة في الجنس البشري، وأن هذا العرْق حافظ على وحدته رغم التأثيرات المناخية فيه، فحافظت اليهودية على نقاوتها عبر العصور. وقد تنبأ هذا المفكر الصهيوني بأن الصراع بين الأجناس سيكون أهم الصراعات، وأسهم في المحاولة الرامية إلى التمييز بين العنصرين الآري والسامي، وهو التمييز الذي قُدِّر له أن يكون بعد عدة سنوات أحد المفاهيم الأساسية التي تبناها مُنظِّرو الفكر العنصري الأوربي .

وقد داعبت هرتزل فكرة الهوية العِرْقية، فترة من الزمن على الأقل فاستخدم عبارات مثل «الجنس اليهودي» أو «النهوض بالجنس اليهودي»، كما أنه كان يفكر في تمييز اليهود عن غيرهم على أساس بيولوجي .

كما يقول ماكس نوردو الذي يُعَدُّ واحداً من أهم مفكري العنصرية الغربية (حتى قبل تَحوُّله إلى الصهيونية) في لغة لا تقبل الشك وتخلو تماماً من الإبهام " إن اليهودية ليست مسألة دين وإنما هي مسألة عرْق وحسب " ولا يخرج مارتن بوبر (أحد الأصوات اليهودية الكبرى في القرن العشرين) في تعريفه لليهودي عن هذا الإطار، فقد تحدَّث عن: " أزلية الأجيال كجماعة يربطها الدم. فالدم قوة مُتجذرة في الفرد تغذيه، والدم هو الذي يحدد المستويات العميقة لوجودنا، ويصبغ صميم وجودنا وإرادتنا بلونه. والعالم من حوله إن هو إلا آثار وانطباعات، بينما الدم هو عالم الجوهر " ونظراً لأن الدم الذي يجري في عروق اليهود يربطهم بالتربة، فقد كان بوبر يشير إلى اليهود باعتبارهم آسيويين " لأنهم إذا كانوا قد طُردوا من فلسطين، فإن فلسطين لم تُطْرَد منهم "

ومسألة الدم هذه لم تكن شائعة في صفوف الفلاسفة والصهاينة المتأثرين بالتراث الألماني وحسب، بل كانت شائعة في صفوف الصهاينة الأنجلو ساكسون

أيضاً. فقد ادَّعى الزعيم الصهيوني نورمان بنتويتش، في حديث أدلى به في عام ١٩٠٩، أن اليهودي لا يمكن أن يكون مواطناً إنجليزياً كاملاً مثل هؤلاء الإنجليز الذين وُلدوا « لأبوين إنجليزيين وانحدروا من أسلاف خلطوا دماءهم بالإنجليز لأجيال كثيرة ».

وعرَّف الأمريكي لويس براندیز اليهودية، في خطاب ألقاه في عام ١٩١٥، بأنها « مسألة تتعلق بالدم ». وذكر أن هذه الحقيقة لقيت قبولاً من جانب غير اليهود الذين يضطهدون اليهود، ومن جانب اليهود الذين يُحسِّون بالفخر عندما يُبدي إخوانهم من ذوي الدم اليهودي تفوقاً أخلاقياً أو ثقافياً أو عبقرية أو موهبة خاصة، حتى إذا كان هؤلاء النابهون قد تخلوا عن الإيمان بالدين، مثل إسبينوزا أو ماركس أو دزرائيلي أو هايني .

ويبدو أن الصهاينة حاولوا، على طريقة المفكرين العنصريين في الغرب، أن يُثبتوا أنهم عرْق مستقل بطريقة « علمية » وليس فقط على طريقة بوبر الفلسفية. ولذا، فإننا نجد في صفوفهم كثيراً من «العلماء » المهتمين بهذه القضية. وقد أشار عالم الاجتماع الصهيوني آرثر روبين إلى "الكتابات المتعلقة بقضية الجنس اليهودي" وأورد في كتابه اليهود في الوقت الحاضر أسماء كثير من «المراجع القيمة» في ذلك الموضوع. ومن بين الأسماء التي يذكرها اسم عالم صهيوني هو إغناتز زولتشان (١٨٧٧ ـ ١٩٤٨) الذي وصف اليهود بأنهم « أمة من الدم الخالص لا تشوبها أمراض التطرف أو الانحلال الخلقي " .وقدَّم روبين نفسه تعريفاً عرْقياً لليهود بيَّن فيه أنهم «استوعبوا عناصر عرْقية أجنبية بدرجة محدودة، ولكنهم في أغلبيتهم يمثلون جنساً متميِّزاً، على عكس ما هو سائد في دول وسط أوربا ".

وكان اللورد بلفور، الصهيوني غير اليهودي، يفكر في اليهود على أساس عرْقي، وربما كان من المهم هنا أن نتذكر أن إحدى المسودات الأولى لوعد بلفور كانت تدعو إلى إقامة « وطن قومي للجنس اليهودي »، وهي جملة تحمل في طياتها تعريفاً بيولوجياً واضحاً للهوية اليهودية .

ثمة – إذن - إجماع صهيوني على التعريف العرْقي لليهودي. وهو أمر متوقع ومفهوم، فقد كانت الصهيونية تبحث عن الشرعية من أوروبا لا من اليهودية، ولذا كان عليها أن تصبح عرْقاً مستقلاً لأن العرْق المستقل وحده هو الذي من حقه أن تكون له دولة مستقلة (حسب الإطار المعرفي السائد في أوربا العلمانية). (1)

لقد حرص اليهود أشد الحرص على إثبات نقاء عنصرهم من أي دماء أخرى لكن أنَّى لهم إثبات ذلك فكل هذه التحريفات التوراتية المكشوفة والآراء الصهيونية المشنوعة لا تثبت نقاء عنصرهم ولا أسطورة قصْر السامية عليهم إنما تثبت فقط عنصريتهم ومقتهم لغيرهم من الأمم والشعوب ، ولقد استغلَّت الصهيونية هذه الأساطير التوراتية لتبرير مشروعها الاستعماري الرامي التخلص من اليهود بتوطينهم في فلسطين ، ولتبرير عملية التطهير العرقي الذي تمارسه منذ وطئت أقدامهم الدنسة أرض فلسطين فلقد ارتكبت من المذابح والمجاز ما حدا بمنظمة الأمم المتحدة اعتبار الصهيونية شكلاً من أشكال العنصرية .

ففي ١٠ نوفمبر ١٩٧٥ وفي جلسة عامة ، اعتبرت منظمة الأمم المتحدة أن الصهيونية شكل من أشكال العنصرية والتمييز العنصري ، ومنذ انهيار الاتحاد السوفييتي وضعت الولايات المتحدة يدها على الأمم المتحدة وحصلت في ١٦ ديسمبر ١٩٩١ على قرار بإلغاء القرار العادل الصادر في سنة ١٩٧٥. مع أن الحقائق تثبت أن لا شيء قد تغير منذ ١٩٧٥ بل اتخذ بالأحرى قمع الشعب الفلسطيني واستعماره وإبادته الجماعية البطيئة أبعادا أوسع لم يسبق لها مثيل . (2)

الرد على أسطورة قصْر السامية علي اليهود وحدَهم

إن أسطورة نقاء العرق اليهودي واتصال نسبه بسام أمر مغرق في الخيال والوهم فهناك تَنوُّع هائل بين أعضاء الجماعات اليهودية على المستوى العِرْقي، فهناك يهود

---

(1) لمزيد من التفصيل حول العِرْق اليهودي راجع " موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية " د . عبد الوهاب المسيري م٢ ج١ : إشكالية العزلة والخصوصية اليهودية . مرجع سابق .

(2) رجاء جارودي " الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية " مرجع سابق ص ٦٨

بيض ، ويهود سود ، ويهود صفر، وتختلف أحجام الرأس باختلاف انتماء اليهودي كما يظهر الاختلاف والتباين على المستوى الثقافي .

أسطورة الجنس والاستعمار الغربي

إن مفهوم "الجنْس" مِن مُستحدَثات القرن التاسع عشر الأوربي، وُضِع اعتِسافًا لتبرير سيطرة الغرب الاستعمارية، وللفصل بين الفصائل اللغوية، بناءً على فكرة الاختلاف "البيولوجي" ولا سيما فكرة التدرُّج بين الأجناس الإنسانية الكبرى.

وقد توصل الكونت دي جوبينو في كتابه: "دراسة عن تفاوُت الأجناس الإنسانية " إلى نتيجة هي: أن الأجناس تَفْسَدُ حين تتهجَّن .

لقد جاء في سفر (التكوين ٩: ١٨- ١٩) "وكان بنو نوح الذين خرجوا من الفُلك سامًا وحامًا ويافثًا، وحام هو أبو كنعان، هؤلاء الثلاثة هم بنو نوح، ومِن هؤلاء تَشَعَّبَتْ كل الأرض". وقد عرفت القرون الوسطي الإقطاعية في حام أبا الرقيق، وفي يافث أبا السادة، وفي سام أبا الكهنة ورجال الدين .

إن مؤلفي التاريخ الطبيعي من أمثال دي جوبينو ، وبوفون قد اصطلحوا على نموذج أصْلِيّ للإنسانية، هو نموذج الجِنْس الأبيض، الذي "يَفْسد" كلَّمَا ابتعد عن المنطقة المعتدلة، ثم إنهم باسم التطورية شديدة العرقية، وقُطبها دائمًا هو أوروبا - رأوا أن غير الغربيين هم البدائيون، وحُجتهم الأساسية "لتبرير" الغزوات الاستعمارية أن رسالة الإنسان الأبيض أن يحمل "التقدُّم" والفكرة الحالية عن "التخلُّف" تُكرِّر هذه الرؤية الطبقية التي بمُوجبها يُصبح المسار النموذجي للإنسانية هو مسار الغرب: فأيُّ شعب هو أكثر تقدُّمًا أو تخلُّفًا بحسب درجة اقترابه مِن هذا المثَل الأعلى!!

ولقد نعَى ليفي شترواس في كتابه: "جنسٌ ودينٌ" بشدة على هذه العرقية، مُبيِّنًا إلى أيِّ مدًى كانت مُفقرة؛ لأنها تنفي حوار الثقافات، قال: "إنَّ المعيار الوحيد الذي

يُؤذي أيَّةَ مجموعة إنسانية، ويَمنعها من تحقيق ذاتها بصورة كاملة هو أن تكون وحدها " (ص:١٧)

لقد استُخدمت النظرية الكاذبة عن الجنس دائمًا لتبرير أعمال السيطرة والعُنْف، والمثال الذي بلغ الذِّرْوة في ذلك هو النازية، فهتلر يتَّهم في كتابه: " كفاحي " اليهود بأنهم يُريدون أن يدمروا بالغباء الناشئ عن التهجين هذا الجنس الأبيض الذي يَمْقُتونه ثم يقول: "إن اليهودي يُسمم دم الآخرين، ولكنه يَحتفظ بدمه " .

العلم وأسطورة الجنس

إن العنصرية ليس لها أيُّ أساسٍ علمي، ولقد ظهر من الناحية البيولوجية أن النظرية القديمة التي كانت تَستخدم "دليل الجُمجمة" لتمييز مُستطيلي الرأس عن "عِرَاض الجُمجمة" هي نظرية يَستحيل التسليم بها، ذلك أن علْم الوراثة الحديث أثبت أن بعض "الجينات" تحكم الخواص المَصلية في الدم، وهو دليل يكشف بُطلان المفهوم البيولوجي عن الجنس.

وجاء أعظم المُتخصِّصين في الموضوع، وهو الأستاذ جان برنارد فهدم "أسطورة الدم" التي تفترض تفاوت الدماء، والقيمة المتفاوتة لدماء الناس المُختلفين، وكتب يقول: "إن هناك علاقةً مُقرَّرة، ومُسلَّمة، بين قيمة الدم من ناحية، وقيمة الإنسان من ناحية أخرى، ذكائه، وقوته، وشجاعته، وفضائله المادية والأخلاقية، وتلك نظرية قديمة جدًّا، ذاعت كثيرًا في القرن التاسع عشر، وفي القرن العشرين، من جالتون ، وهو قريب من داروين، إلى هتْلر، مُرورًا بفاشر دي لبوج وجوبينو، وهي ما زالت تُلهم حديثًا بعض المُتمسكين بها من البيولوجيين الاجتماعيين الجُدد ولم تكفِ خواصُّ الدم، وصفات الذكاء عن أن تَتشابك على طول هذا التاريخ الخطِر، تارة يكون التركيز على خواص الدم، وتارة أخرى على صفات الذكاء.

والحق أن هذه الأحكام المؤكدة، الخادعة والمُهلكة في آن واحد ـ لا تقوم على شيء.

لقد كان الهدف مِن القوانين الهتلرية في نورمبرج "حماية الدم الألماني" بمُطاردة الدم اليهودي، وقد اصطدم تطبيقها بنفس المشكلات الزائفة التي هي اليوم مشكلات دولة إسرائيل فيما شرعته مِن "قانون العودة": مَن يكون اليهودي؟ إذ إنه لم يعُد يُوجد "جنس يهوديٌّ" كما لا يُوجَد "جنس آري". (١)

وبحلول الثلاثينيات من القرن العشرين كانت الحياة في الغرب قد تحوَّلت عن العنصرية التي فقدت إلى حدٍّ كبير ما كانت تحظى به من قبول وتأييد في الأوساط العلمية. وكما يقول الزعيم الصهيوني ناحوم سوكولوف: بعد أن عشنا عصراً أصبحت فيه كلمة «عنصر» أو «عرْق» معادلة للقسوة والبربرية، فإن معظم الناس ينفرون من استخدام هذا المصطلح .

ويُضاف إلى هذا أن علم الأجناس قد أظهر أن هذا المصطلح لا يمكن أن يُطبَّق حقاً على اليهود، وذلك رغم أنه كان من المعتاد تماماً الإشارة إلى اليهود في عصر ما قبل هتلر على أنهم «جنس»، وكان الكثيرون يعتقدون أن يهودية المرء مسألة تتعلق بمولده وسماته .

ولذا، كان لابد من العدول عن استخدام كلمة «عرْق». وبدلاً من ذلك، بدأ تعريف اليهودي على أساس إثني ، أي على أساس التراث والثقافة المشتركة، ومن ثم حلت الإثنية محل العرْقية كنقطة مرجعية وكأساس للهوية. لكن التعريف الإثني لا يختلف في جوهره عن التعريف العرْقي، فكلاهما يفرز نظرية في الحقوق (العرْقية أو الإثنية) تعطي صاحب الهوية العرْقية أو الإثنية مزايا معينة وقوة مطلقة تنكرها على غيره من البشر . (2)

---

(1) رجاء جارودي " فلسطين أرض الرسالات الإلهية " الباب الثاني ، الفصل الثاني : من اليهودية إلى القومية الصهيونية . مرجع سابق .

(2) د . عبد الوهاب المسيري " موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية " م٢ ج١ إشكالية العزلة والخصوصية اليهودية . مرجع سابق .

ولقد أجرت السيدة مارجريت كندل ، وهي عالمة جينيات ، دراسة عن الألمان باعتبار أن هتلر كان يعلن دائمًا بأنهم من أنقي الشعوب لأنهم ينتمون إلي الجنس الآري، فوجدت أن الجينات مختلفة وأن شعبها متباين تمامًا ثم البحث الثاني عن اليهود ، وقد فوجئت بأن يهود الاتحاد السوفيتي يحملون نفس فصائل الدم، وجينيات شعب الاتحاد السوفيتي، ويهود انجلترا مثل بقية الشعب الإنجليزي، ويهود أمريكا مثل الأمريكان. إذن مسألة نقاء العرق اليهودي غير صحيحة، وهذا ما كان قد قاله العقاد منذ فترة طويلة، عندما ذكر أن العرق اليهودي النقي الوحيد متمثل في٣٠٠ شخص ينتمون إلي قبيلة السامرية، وهم من الذين لم يختلطوا بالشعوب الأخرى (١)

وهكذا قال العلم كلمة في أسطورة النقاء العرقي ، وأكد إحدى الأساطير التي اختلقتها بعض الشعوب للاستيلاء على ما ليس لهم بحق .

لقد أسس الصهيونيون أسطورة "العودة" على أسطورة الاستمرار العرقي والتاريخي بين العبرانيين الكتابيين، وبين اليهود المعاصرين، وقد حاولوا حمْل الآخرين على الاعتقاد بأن كل "يهوديٍّ" أينما وُجد في العالم، عندما يَجيء إلى إسرائيل ـ إنما "يعود" إلى أرض أجداده، في حين يُقرِّر الواقع أن ٩٩% على الأقل مِن اليهود المعاصرين ليس مِن أجدادهم أحد وطئت قدماه أرض فلسطين، بسبب التحوُّل مِن ناحية، وبسبب الزيجات المختلطة خلال القرون من ناحية أخرى .

لقد استنتج مَكسيم رودنسون بهدوء قوله: "إن مِن المُحتمل جِدًّا، على ما أثبته علْم الأنثروبولوجيا الفيزيقية ـ أن السُّكَّان المَوصوفين بأنهم "عرب" في فلسطين، "وقد كانت الأغلبية مع ذلك "مُستعربة" كان فيهم من دم قدماء العبرانيين، أكثر ممَّا لدَى أغلبية اليهود في الشتات، الذين لم يَمنعهم التعصُّب الديني مُطلقًا مِن أن يَمتصُّوا مِن المُتحولين ذَوي الأصول المختلفة. (٢)

---

(١) من حوار أجراه صلاح صيام مع د. وسيم السيسي نشر علي بوابة الوفد الاليكترونية بتاريخ ٢٠١٣/٧/١١

(2) مكسيم رودنسون: "شعب يهودي أم مشكلة يهودية " ص : ٢١٨ نقلا عن " فلسطين أرض الرسالات الإلهية " الباب الثاني ، الفصل الثاني . مرجع سابق .

وهكذا تنهار أسطورة "العوْدة" وقد لجَأ القادة الصهيونيون الإسرائيليون إلى هذه الأساطير كيْمَا يُخفوا غزوتهم الاستعمارية تحت قناع "عودة" اليهود، الذين ليْس لأغلبيتهم الساحقة أيُّ جَدٍّ أصليٍّ من هذا البلد، إن أوضح نتائج هذه الخديعة قد صاغها تُوماس كيمان في قوله: "إن الصهيونيين أوربيون، وليس هنالك مُطلقًا أيُّ رباط بَيولوجي، أو أنثروبولوجي بين أجداد اليهود في أوربا، وبين قدامى الأسباط العبرانيين". (1)

الصهيونية والأصل السامي لليهود

والأصل أن العبرانيين كانوا قبائلَ سامية، ضِمْنَ قبائل أخرى، متبدية مُترحِّلة، مِن شبه الجزيرة العربية إلى العراق، وإلى سورية، وإلى فلسطين، وإلى مصر.

وقد استَمدت القصص الكتابية سَمْتَهَا من هذا المجتمع الأصلي، ومِن هذا الخليط مِن الشعوب : فليس إبراهيم وحده هو الذي لم يكن عِبرانيًا، بل آراميًّا " ٥ثُمَّ تُصَرِّحُ وَتَقُولُ أَمَامَ الرَّبِّ إِلهِكَ: أَرَامِيًّا تَائِهًا كَانَ أَبِي، فَانْحَدَرَ إِلَى مِصْرَ وَتَغَرَّبَ هُنَاكَ فِي نَفَرٍ قَلِيل، فَصَارَ هُنَاكَ أُمَّةً كَبِيرَةً وَعَظِيمَةً وَكَثِيرَةً. " (التثنية : ٢٦) ، بل إن حزْقيال يقول عن أورشليم: " ٣هكَذَا قَالَ السَّيِّدُ الرَّبُّ لأُورُشَلِيمَ: مَخْرَجُكِ وَمَوْلِدُكِ مِنْ أَرْضِ كَنْعَانَ. أَبُوكِ أَمُورِيٌّ وَأُمُّكِ حِثِّيَّةٌ.". (حزقيال : ١٦)

وأبرز السمات في الصهيونية السياسية الراهنة، وفي استغلالها السياسي، لليهودية أنها تختار لهذا الاستغلال، من التقاليد اليهودية أبلاها وأقتلها، أبلاها، وهو "التقليد القبلي" وأقتلها وهو "التعصُّب".

إن الرفْض الصهيوني للاندماج يعتمد على سُلَّم للقيم، ثبَّته الفريق الكهنوتي الذي حصَر التاريخ اليهودي في هذا المُخطَّط : العصر الذهبي هو عصر العُزْلة القبليَّة،

(1) توماس كيمان " العرب " ص ٢٥٣ نقلا عن " فلسطين أرض الرسالات الإلهية " الباب الثاني الفصل الثاني . مرجع سابق .

من حيث هي نقاءٌ وطهارةٌ، والانحطاط هو الانفتاح على الآخرين، والحوار من أجل الخِصْب المتبادَل، "وتمثُّل" كل ما هو سامٍ عند الآخرين .

ويؤكد علماء اللجنة اليهودية الأمريكية على عدم وجود جنس يهودي كما يدعي الصهاينة : " بالتأكيد فإن إسرائيل لا تمثل جنسًا معيَّنًا، لأن اليهود يمكن أن يكونوا سودًا أو بيضًا ويمثلون صفات أجناس مختلفِ الشعوبِ. وهي ليست ديانة فقط ولا هي مجرد ثقافة أو إثنية أو جنس، بل ربما خليط الكل ويمكن وصف الشعب الإسرائيلي بشكل أفضل كثقافة دينية كان لها وجود، ونمو، وتطور أكثر من ثلاثة آلاف سنة " [1]

الشعوب السامية

السامية نسبة إلى سام الابن الأكبر لنوح. والمصطلح يُطلق على مجموعة من الشعوب عاشت في رقعة كبيرة من الأرض (تضم شبه الجزيرة العربية والشام وبلاد الرافدين) وتحدثت بمجموعة من اللغات المتقاربة هي اللغات السامية. وتشمل التسمية شعوباً مثل الآشوريين والبابليين والآراميين والكنعانيين والفينيقيين والعموريين والمؤابيين والأدوميين والعمونيين والعبرانيين، كما تشمل جزءاً كبيراً من سكان إثيوبيا فيما بعد .

وفي الوقت الحاضر، يمثلهم العرب (من الناحية الأساسية) . وينتمي العبرانيون (أي اليهود القدامى) إلى الشعوب السامية وليس إلى مجموع اليهود بوجه عام، ذلك أن أعداداً كبيرة من الأفراد والقبائل غير السامية مثل الخزر قد تهوَّدت .

ويكاد يُجمع الباحثون على أن شبه جزيرة العرب هي الموطن الأصلي للساميين، فمنها خرجت هجرات متتالية إلى بلاد الرافدين حتى جبال إيران وإلى أرمينيا

([1]) الحاخام روبن فايرستون و د. ستيفن ستاينلايت و الحاخام جيمز أ. رودين . وآخرون " ذرية إبراهيم " مرجع سابق ص ١٠٠

ومنطقة الهلال الخصيب. وكانت هجراتهم الجماعية على فترات متباعدة أولاها هجرة الأكاديين الذين عُرفوا بالبابليين نحو عام ٣٥٠٠ ق.م ثم هجرة الآراميين بين عامي ١٥٠٠ و١٢٠٠ ق.م وآخرها هجرة العرب مع الفتوحات الإسلامية في القرن السابع الميلادي .

ويُعَدُّ العرب أكثر الجماعات السامية قرباً مما يمكن تسميته " الخطاب الحضاري السامي الأصلي" . كما أن اللغة العربية أقرب اللغات الحية إلى السامية الأصلية. ومع هذا، ينصرف مصطلح"معاداة السامية " إلى اليهود دون سواهم . (١)

فالعرب إذن هم أصل الشعوب السامية وهذا ما أثبته المؤرخون القدامى والمحدثون .

قال ابن هشام : العرب كلها من ولد إسماعيل وقحطان . وبعض أهل اليمن يقول : قحطان من ولد إسماعيل . ويقول : إسماعيل أبو العرب كلها .

قال ابن إسحاق : عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح ، وثمود وجديس ابنا عابر بن إرم بن سام بن نوح ، وطسم وعملاق وأميم بنو لاوذ بن سام بن نوح ، عرب كلهم . فولد نابت بن إسماعيل : يشجب بن نابت ، فولد يشجب: يعرب بن يشجب ، فولد يعرب : تيرح بن يعرب ، فولد تيرح : ناحور بن تيرح ، فولد ناحور : مقوم بن ناحور، فولد مقوم : أدد بن مقوم ، فولد أدد : عدنان بن أدد. فمن عدنان تفرقت القبائل من ولد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام " (2)

أصل اليهود المعاصرين

نحن نطلق اليوم اسم اليهودي بشكل عام علي كل شخص اعتنق يومًا الدين اليهودي .. والواقع هو أن الكثيرين من هؤلاء ليسوا ساميين من حيث الأصل

(1) موسوعة " اليهود واليهودية والصهيونية " عبد الوهاب المسيري م٤ / ج ١ " الساميون والشعوب السامية " . مرجع سابق .

(٢) ابن هشام " السيرة النبوية " ١ / ١١٥ دار الجيل الطبعة الأولى بيروت .

العِرْقي، ذلك أن عددًا ضخمًا منهم منحدرون من سلالات الهيروديين أو الأيدوميين ذوي الدم التركي المنغولي .

شرعت الأعراق غير الساميَّة والتركية والفنلندية في القدوم إلي أوروبا، قادمة من آسيا منذ القرن الأول الميلادي، عبر الممر الأرضي الواقع شمالي بحر قزوين .. ويطلق علي هذه الشعوب الوثنية اسم "الخزر".. وقد استقروا في أقصي الشرق من أوروبا، حيث شكلوا مملكة الخزر القوية، ثم بسطوا سلطانهم شيئا فشيئا بواسطة الغزوات المتكررة، حتى سيطروا في نهاية القرن الثاني علي معظم المناطق الواقعة في أوروبا الشرقية غربي جبال الأورال وشمالي البحر الأسود .

وقد اعتنق الخزر اليهودية آنئذ، مفضلين إياها علي المسيحية أو الإسلام ، وبنوا الكنائس والمدارس لتعليم الدين اليهودي في سائر أنحاء مملكتهم.. وكان الخزر إبان ذروة قوتهم يجبون الجزية من خمسة وعشرين شعبا قهروهم .

وقد عاشت دولة الخزر ما يقارب الخمسمائة عام، حتى سقطت في نهاية القرن الثالث عشر في أيدي الروس الذين هاجموهم من الشمال .

وقد انتقلت الروح الثورية من الخزر اليهود إلي الإمبراطورية الروسية، واستمرت حتى ثورة الحمراء سنة ١٩١٧.

إن غزو الخزر في القرن الثالث عشر يبيّن لنا أن الكثير من الناس الذين نطلق عليهم اسم اليهود قد بقوا في الواقع داخل الإمبراطورية الروسية . [1]

وانتشر الخزر واستوطنوا المجر وهنغاريا وبولندا وأنحاء واسعة من أوروبا الشرقية ووسطها مصاحبين أو مستفيدين من التوسع التركي العثماني ومن المؤكد أن الخزر لم يكونوا عرقا واحدا أو ينتمون إلى قبيلة معينة، ولكنهم تجمع سياسي وعسكري من الشعوب والقبائل، وكانت اليهودية التي تجمع دينيا بين قادتهم ونخبهم

([1]) وليم جاي كار " أحجار على رقعة الشطرنج " الفصل الثالث " اليهود " .

الحاكمة والمؤثرة، فكان اليهود الخزر ينتمون إلى أعراق وشعوب وقبائل متعددة، فقد كانوا هم أيضا تجمعا نخبويا يشمل قيادات ونخب الخزر أنفسهم ويغلب على الدراسات التاريخية أن تنسب يهود الإشكناز إلى الخزر، ولكن قد يكون أيضًا كثير من الأشكناز من الأوروبيين الأصليين وليس فقط من الخزر، فالمعلومات والمصادر التاريخية المتاحة لا تكفي لتأكيد مقولة حصر انتساب الأشكناز إلى الخزر، ولكن المؤكد هو أنهم ليسوا من بني إسرائيل . [1]

لا حق لليهود في استيطان أرض فلسطين

دأبت الصهيونية العالمية على مدى سنوات طويلة ، على طمس حقيقة عروبة القدس ، واختلاق الأكاذيب والادعاءات وتزوير الوثائق وتحريف النصوص بهدف طمس عروبة القدس، وطمس الوجود العربي في فلسطين .

ولقد نجحت آلة الضغط واللوبيات اليهودية والصهيونية العالمية في التأثير على مراكز صنع القرار في الولايات المتحدة، حتى أصدر الكونغرس الأميركي قراره باعتبار القدس عاصمة لإسرائيل ، ضاربًا عُرض الحائط بكل التراث التاريخي والقيم الإنسانية العقائدية للمسلمين وللمسيحيين أيضا في هذه المدينة العربية المقدسة

إن القدس تستمد عروبتها من عروبة فلسطين نفسها، وتوراة اليهود تثبت ذلك إذ لم يكن هناك في التاريخ وجود حقيقي ومستقر ومتواصل لبني إسرائيل في فلسطين، فبنو إسرائيل في زمن يعقوب عليه السلام لم تكن تعيش في فلسطين، وسفر العدد من التوراة الذي يحدد عدد الخارجين من مصر في زمن موسى عليه السلام يدل على أن اليهود لم يكونوا مقيمين في فلسطين، بل خارجها، وبالتحديد في مصر قبل زمن الخروج ، لم يكن لهم فيها صلة بفلسطين، كما أن نصوص التوراة لم تقل بأن اليهود خرجوا من مصر إلى أرض إسرائيل ، بل إلى أرض فلسطين، وأن بهذه الأرض شعوبًا أخرى ليس منها بنو إسرائيل .

---

(1) لمزيد من التفصيل عن يهود الخزر راجع د.م. دنلوب " تاريخ يهود الخزر " دار قتيبة للنشر، دمشق

وأن الفلسطينيين انتصروا على بني إسرائيل أكثر من مرة واستعبدوهم في عهد داود عليه السلام، وان اليهود دخلوا في الشتات والتيه والتشرد لقرون طويلة قبل الميلاد ما بين مصر وبابل وآشور وغيرها، بينما بقي الفلسطينيون تاريخهم كله في فلسطين لم يخرجوا منها، وهو الأمر الذي تؤكد عليه التوراة ، وينكره اليهود الصهاينة اليوم .

إن ظهور الإسلام أكد على الأصول العربية للشعوب السامية، وبفضل الإسلام عادت هذه الشعوب إلى حظيرة العروبة بعد دخولها في الإسلام، ووحد الإسلام الفكر واللغة لكل سكان الشرق الأدنى القديم، وعادت اللغة العربية لتحتل مكانتها القديمة حيث كانت أصلا لكل اللغات السامية قبل أن تستقل هذه اللغات عنها، وهكذا كانت فلسطين قبل الإسلام وبعده وحتى الآن عربية .

ومر الغزو الأجنبي لفلسطين بمراحل عديدة بداية بالغزو الآشوري والذي كان له بالغ الأثر على وجود الإسرائيليين وبنيتهم الاجتماعية في شمال فلسطين، وأدى إلى سبيهم وتشتتهم وإخلاء شمال فلسطين منهم تمامًا، ثم جاء بعد ذلك الغزو البابلي لفلسطين في القرن بقيادة نبوخذ نصر، وكان السبي البابلي الشهير لليهود إلى بلاد بابل وآشور، والذي كان بداية للشتات الطويل لليهود الذي استمر حتى عصرنا الحاضر، وجاء بعد الغزو البابلي الغزو الروماني والذي صحبه أكبر عمليات سبي وشتات لليهود أدت إلى تفرقهم في أماكن مختلفة من العالم، وقد وقع الغزو الروماني لفلسطين في القرن الأول للميلاد عام ٧٠ م ، وراح ضحيته أكثر من مليون يهودي قتلوا في الحرب مع الرومان، وخرج باقي اليهود من فلسطين متوجهين شمالا وغربا إلى أوروبا، وفقدت فلسطين قيمتها تماما بعد ذلك بالنسبة لليهود .

إن فترة الوجود والاستقرار الوحيد في حياة الإسرائيليين في فلسطين هي فترة الدولة المتحدة التي نشأت في عصر شاؤول، وداود وسليمان عليهما السلام وتمتد من ١٠٣٠ إلى ٩٢٣ قبل الميلاد، أي نحو مائة عام تقريبا، وانقسمت الدولة بعد هذه

الفترة إلى دولتين هما، إسرائيل الشمالية، ويهوذا الجنوبية، وسقطت الدولة الأولى على يد الآشوريين عام ٧٢١ ق،م،، وسقطت الثانية عام ٥٨٦ ق،م، على يد البابليين.

إن المدينة القديمة التي كانت تسمى يبوس تحولت إلى مدينة أورشاليم التي أنشأها العرب الكنعانيون القادمون من شبه الجزيرة العربية، وقد حكموها من عام ٢٠٠٠ وحتى عام ١٠٠٠ قبل الميلاد، أن اسم « أورشاليم » هو اسم عربي وليس عبريا، وان الكنعانيين أطلقوه على القدس نسبة إلى أحد الملوك الكنعانيين العرب واسمه ساليم، وان هذا كان قبل ظهور اللغة العبرية .

إن سفر القضاة في العهد القديم يؤكد على عروبة أورشليم ، وأنها لم تشهد ملكا لبني إسرائيل حتى قيام مملكة شاؤول وداود وسليمان، وأن الفلسطينيين، حسب سفر القضاة، هم الذين كانت لهم السيادة على اليهود في هذه البلاد، حيث يؤكد العهد القديم على أن العرب الكنعانيين كانوا أصحاب حضارة بينما الإسرائيليون كانوا بدوًا . إن عمليات تهويد القدس مستمرة من قِبَل الإسرائيليين، ومعالمها العربية والإسلامية تتساقط وتندثر تدريجيًّا، والقدس بالفعل أصبحت على وشك الضياع إن لم تكن قد ضاعت بالفعل، وتحتاج إلى معجزة لإنقاذها وإعادتها لهويتها العربية .(1)

والعجيب أن توراة اليهود تذكر صراحة أن الفلسطينيين العرب هم أول من سكن وتملك أرض فلسطين .

" فَقَالَ الرَّبُّ: «قَدْ شَهِدْتُ مَذَلَّةَ شَعْبِي الَّذِي فِي مِصْرَ وَسَمِعْتُ صُرَاخَهُمْ مِنْ جَرَّاءِ عُتُوِّ مُسَخِّرِيهِمْ وَأَدْرَكْتُ مُعَانَاتَهُمْ، ٨فَنَزَلْتُ لأُنْقِذَهُمْ مِنْ يَدِ الْمِصْرِيِّينَ وَأُخْرِجَهُمْ مِنْ تِلْكَ الأَرْضِ إِلَى أَرْضٍ طَيِّبَةٍ رَحِيبَةٍ تَفِيضُ لَبَناً وَعَسَلاً، أَرْضِ الْكَنْعَانِيِّينَ وَالْحِثِّيِّينَ وَالأَمُورِيِّينَ وَالْفَرِزِّيِّينَ وَالْحِوِّيِّينَ وَالْيَبُوسِيِّينَ. "(الخروج : ٣)

وأن إسحق رحل إلى مدينة جَرَار الفلسطينية الخاضعة لأبيمالك ملك الفلسطينيين للعيش في كنفه فارًّا من الجوع الذي حل بأرضه " وَحَدَثَ فِي الأَرْضِ جُوعٌ غَيْرُ

(1) " عروبة فلسطين والقدس في التاريخ القديم " مركز زايد للتنسيق والمتابعة عرض ليلى يكن أبو ظبي

الْجُوعِ الأَوَّلِ الَّذِي كَانَ فِي أَيَّامِ إِبْرَاهِيمَ، فَارْتَحَلَ إِسْحقُ إِلَى مَدِينَةِ جَرَارَ حَيْثُ أَبِيمَالِكُ مَلِكُ الْفِلِسْطِينِيِّينَ " (التكوين : ٢٦)

فتوراة اليهود تنص على أن فلسطين كانت كنعانية قبل أن يرتحل إليها إسحق فارًّا من الجوع ، وقبل أن يلجأ إليها بنو إسرائيل فارِّين من فرعون مصر ، وبرغم هذا الاعتراف فإن توراة اليهود تذكر أن الرب قد وعد إسحق أن يعطيه أرض الفلسطينيين ملكًا له وفاء لقسمه لإبراهيم أبيه " ٢فَظَهَرَ لَهُ الرَّبُّ قَائِلاً: " «لاَ تَمْضِ إِلَى مِصْرَ، بَلُ امْكُثْ فِي الأَرْضِ الَّتِي أُعَيِّنُهَا لَكَ. ٣أَقِمْ فِي هَذِهِ الأَرْضِ فَأَكُونَ مَعَكَ وَأُبَارِكَكَ، لأَنَّنِي أُعْطِي لَكَ وَلِذُرِّيَّتِكَ جَمِيعَ هَذِهِ الأَرْضِ وَفَاءً بِقَسَمِي الَّذِي أَقْسَمْتُ لإِبْرَاهِيمَ أَبِيكَ " (التكوين : ٢٦)

لقد كان اليهود لا يشكّلون إلا أقلية في المجتمعات التي يعيشون فيها حتى عندما كونوا مملكة يهودية فقد كانت مملكتهم صغيرة مقامة على جزء من أرض فلسطين التي كانت مكتظة بالعرب الكنعانيين ، وهذا ما يؤكد علماء اليهود المعاصرون :

" يشكل اليهود - منذ نحو ألفين سنة تقريبًا - وعلى العموم، أقلية في الأماكن التي يعيشون فيها. وحتى في أرض إسرائيل في الأيام الغابرة التي كان فيها اليهود، بكل تأكيد، الأغلبية الساحقة لأن البلد كان صغيرًا ومحاطاً بعدد من الشعوب الأخرى غالبًا أكبر من اليهود، وكلها وثنية . [1]

إذن أحقية العرب في فلسطين ثابتة تاريخيًّا وتوراتيًّا فهم أصحاب الأرض الأصليين كما أنه لم يكن هناك في التاريخ وجود حقيقي ومستقر ومتواصل لبني إسرائيل في فلسطين، وإن الفلسطينيين العرب انتصروا على بني إسرائيل أكثر من مرة واستعبدوهم في عهد داود عليه السلام ، وان اليهود دخلوا في الشتات والتيه والتشرد لقرون طويلة قبل الميلاد ما بين مصر وبابل وآشور وغيرها، بينما بقي

([1]) الحاخام روبن فايرستون و د. ستيفن ستاينلايت و الحاخام جيمز أ. رودين . وآخرون " ذرية إبراهيم " مرجع سابق ص ١٠١ .

الفلسطينيون تاريخهم كله في فلسطين لم يخرجوا منها، وهو الأمر الذي أكد عليه كتاب العهد القديم ، و ينكره اليهود الصهاينة الآن .

كما أن نصوص التوراة لم تقل بأن اليهود خرجوا من مصر إلى أرض إسرائيل، بل إلى أرض فلسطين ، وأن بهذه الأرض شعوبا أخرى ليس منها اليهود

فاهو الرب يقول لموسى " ١٦اذْهَبْ وَاجْمَعْ شُيُوخَ إِسْرَائِيلَ وَقُلْ لَهُمْ: إِنَّ الرَّبَّ إِلَهَ آبَائِكُمْ، إِلَهَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحقَ وَيَعْقُوبَ قَدْ تَجَلَّى لِي قَائِلاً: إِنِّي حَقّاً قَدْ تَفَقَّدْتُكُمْ، وَشَهِدْتُ مَا أُصَابَكُمْ فِي مِصْرَ، ١٧وَهَا أَنَا قَدْ وَعَدْتُ أَنْ أُخْرِجَكُمْ مِنْ ضِيقَةِ مِصْرَ إِلَى أَرْضِ الْكَنْعَانِيِّينَ وَالْحِثِّيِّينَ وَالأَمُورِيِّينَ وَالْفَرِزِّيِّينَ وَالْحِوِّيِّينَ وَالْيَبُوسِيِّينَ، هَذِهِ الأَرْضِ الَّتِي تَفِيضُ لَبَناً وَعَسَلاً " (الخروج : ٣)

زواج بني إسرائيل بالأجانب

إن النهي عن الزواج من أجنبيات الذي بالغ مؤلفو التوراة في إثبات تمسك العبرانيين به هو محض افتراء فقد نصت التوراة نفسها أنه لم يحدث أبدًا ففي كل العصور كان هناك زواج من أجنبيات .

إن العبرانيين، منذ استقرارهم في كنعان قد اختلطوا بالدم وبالثقافة مع الشعوب المحلية، وذلك بشهادة الكتاب المقدس ذاته فتوراة اليهود تصرِّح بأن بني إسرائيل لم يحافظوا على نقاء عرقهم بل اختلطوا بغيرهم من الأمم الأخرى وتزوجوا بناتهم وزوجوهم . وأن الزواج من الأغيار شمل معظم أنبياء بني إسرائيل .

فقد تزوج إبراهيم بهاجر المصرية " أَخَذَتْ سَارَايُ جَارِيَتَهَا الْمِصْرِيَّةَ هَاجَرَ وَأَعْطَتْهَا لِرَجُلِهَا أَبْرَامَ لِتَكُونَ زَوْجَةً لَهُ." (التكوين : ١٦)

" وتزوج عيسو بكر إسحق وأخو يعقوب بزوجتين حيثيتين . قَالَتْ رِفْقَةُ لإِسْحقَ: «قَدْ كَرِهْتُ حَيَاتِي مِنْ جَرَّاءِ الْبَنَاتِ الْحِثِّيَّاتِ، فَإِنْ تَزَوَّجَ يَعْقُوبُ مِنِ الْحِثِّيَّاتِ بَنَاتِ هَذِهِ الأَرْضِ الْمُمَاثِلاتِ لِزَوْجَتَيْ عِيسُو، فَإِنَّ مَوْتِي خَيْرٌ مِنْ حَيَاتِي "(التكوين : ٢٧)

وتزوج يوسف من ابنة كاهن مصري وأنجب منها ولدين .

" وَدَعَا فِرْعَوْنُ اسْمَ يُوسُفَ صَفْنَاتَ فَعْنِيحَ ، وَزَوَّجَهُ مِنْ أَسْنَاتَ بِنْتِ فُوطِي فَارَعَ كَاهِنِ أُونَ، فَذَاعَ اسْمُ يُوسُفَ فِي جَمِيعِ أَرْجَاءِ مِصْرَ. ٥٠وَأَنْجَبَتْ أَسْنَاتُ بِنْتُ فُوطِي فَارَعَ كَاهِنِ أُونَ لِيُوسُفَ ابْنَيْنِ قَبْلَ حُلُولِ سَنَوَاتِ الْجُوعِ " (التكوين : ٤١)

وبارك إسرائيل (يعقوب) ابني يوسف من السيدة المصرية واعتبرهما من نسله الذي يرث الأرض الموعودة بل يُعدُّ ابني يوسف من أسنات المصرية المثل الأعلى لبني إسرائيل يدعون الله لكي يصيروا مباركين كابني يوسف .

" وَأَبْصَرَ إِسْرَائِيلُ ابْنَيْ يُوسُفَ فَسَأَلَ: «مَنْ هَذَانِ؟» ٩فَأَجَابَهُ يُوسُفُ: «هُمَا ابْنَايَ اللَّذَانِ رَزَقَنِي إِيَّاهُمَا اللهُ هُنَا». فَقَالَ: «أَدْنِهُمَا مِنِّي فَأُبَارِكَهُمَا». .. وَبَارَكَ يُوسُفَ قَائِلاً: «إِنَّ اللهَ الَّذِي سَلَكَ أَمَامَهُ أَبَوَايَ إِبْرَاهِيمُ وَإِسْحقُ، اللهَ الَّذِي رَعَانِي مُنْذُ وُجُودِي إِلَى هَذَا الْيَوْمِ، ١٦الْمَلاَكَ الَّذِي أَنْقَذَنِي مِنْ كُلِّ شَرٍّ، يُبَارِكُ الْغُلاَمَيْنِ، وَلْيُدْعَ عَلَيْهِمَا اسْمِي وَاسْمَا أَبَوَيَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحقَ، وَلْيَكْثُرَا كَثِيراً فِي الأَرْضِ»..... ٢٠وَبَارَكَهُمَا فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ قَائِلاً: «بِكَ يُبَارِكُ بَنُو إِسْرَائِيلَ قَائِلِينَ: «لِيَجْعَلْكَ اللهُ مِثْلَ أَفْرَايِمَ وَمِثْلَ مَنَسَّى» . (التكوين : ٤٨)

وتوراة اليهود تصرح أن يعقوب قد أعطى يوسف وذريته من زوجته المصرية سهما زيادة على إخوته في أرض الميعاد .

" ثُمَّ قَالَ إِسْرَائِيلُ لِيُوسُفَ: " إِنَّنِي مُشْرِفٌ عَلَى الْمَوْتِ وَلَكِنَّ اللهَ سَيَكُونُ مَعَكُمْ وَيَرُدُّكُمْ إِلَى أَرْضِ آبَائِكُمْ. ٢٢وَهَا أَنَا قَدْ وَهَبْتُ لَكَ مِنَ الأَرْضِ سَهْماً وَاحِداً عَلاَوَةً عَلَى إِخْوَتِكَ، أَخَذْتُهُ مِنَ الأُمُورِيِّينَ بِسَيْفِي وَقَوْسِي ". (التكوين : ٤٨)

والسؤال هنا هل تُعَدُّ الأُمَّة العظيمة التي من نسل منسى ، وجمهور الأمم التي من نسل أفرايم من بني إسرائيل ، عِلماً بأن أمهما مصرية لم تكن تَمُتُّ لبني إسرائيل بأية صلة قبل أن يتزوجها يوسف الصديق ؟

فإن كانت الإجابة بنعم – كما تصرح التوراة بذلك – فالمصريون إذن يكونون شركاء لليهود في العهود الإلهية بتملك الأرض المقدسة ، والخلاص في آخر الزمان.

وإن كانت الإجابة بـ لا حسب القانون اليهودي بأنه لا يُعَد يهوديًّا إلا من كانت أمه يهودية فإن على اليهود أن يتتبعوا ذرية يوسف – إن استطاعوا – ويخرجوهم من إسرائيل فهم ليسوا من شعب الله المختار ، ولا يستحقون العهود الإلهية !!

كذلك عليهم أن يفعلوا الشيء نفسه مع ذرية موسى فيتتبعون ذريته من ابنة كاهن مديان صفُّورة . فقد تزوج موسى من ابنة كاهن مِديان " صفُّورة " وأنجب منها :

" وقبل موسى أن يقيم مع الرجل (كاهن مِديان) الذي زوجه من ابنته صَفُّورة . فأنجبت له ابنا دعاه جِرشوم (ومعناه غَريب) إذ قال " كنت نزيلاً في أرض غريبة"(الخروج:٢)

" كانت قصة موسى الذي تزوج بنت كاهن عربي حكيم من مدين يسمى يثرو هي الاستثناء المهم في هذا الاتصال القليل نسبيًّا بين المجموعتين " [1]

كذلك عليهم أن يتتبعوا ذرية سليمان من زوجته المصرية ابنة فرعون مصر.

" تزوج سليمان ابنة فرعون ملك مصر وأحضرها إلي مدينة داود "

(ملوك الأول : ٣)

وأن يتتبعوا ذرية ملك مصر شيشنق الأول الذي تزوج ابنة سليمان " تزوج ملك مصر الليبي (شيشنق الأول)، من الأسرة الثانية والعشرين الليبية (٩٤٥ ـ ٧٤٥ ق.م)، ابنة سليمان "

وكذلك عليهم أيضًا أن يتتبعوا ذرية سليمان من زوجاته الألف الأجنبيات " أولع سليمان بنساء غَريبات كثيرات ، فضلاً عن ابنة فرعون ، فتزوج نساء موآبيات ، وعمونيات ، وأدوميات وصيدونيات وحثيات وكلهن من بنات الأمم التي نهى الرب

([1]) الحاخام روبن فايرستون و د. ستيفن ستاينلايت و الحاخام جيمز أ. رودين . وآخرون " ذرية إبراهيم " مرجع سابق ص ٦٨

بني إسرائيل عن الزواج منهم قائلا لهم : " لا تتزوجوا منهم ولا هم منكم ، لأنهم يغوون قلوبكم وراء آلهتهم " ولكن سليمان التصق بهن لفرط محبته لهن فكانت له سبعمائة زوجة ، وثلاثمائة محظية " (ملوك أول : ١١)

كذلك عليهم أن يتتبعوا ذراري بني إسرائيل من أزواجهم وزوجاتهم الأجانب .

" وأقام بنو إسرائيل بين الكنعانيين والأَمُوريين والفرِزِّيِّين والحوِّيِّين واليَبُوسيين . وتزوجوا من بناتهم ، وزوَّجوا بناتهم لأبنائهم وعبدوا آلهتهم " (القضاة : ٣)

والحقيقة التي تؤكدها توراة اليهود أن التزوج من الأجنبيات لم يكن أمراً مُحرَّماً في معظم تاريخ بني إسرائيل بل أنه كان هو القاعدة المتبعة .

ولقد بقي الزواج المُختلط كثيرًا في يهود الشتات كما تشهد بذلك جهود المجامع لإيقاف تيَّاره، فكان الخطر الذي أصدره مَجمع تُوليد "عام: ٥٨٩م"، والذي أصدره مجمع روما "عام: ٧٤٣م" والذي أصدره مجمع لتران، عام "١١٢٣، ١١٣٩م".

ولا ريب أن سياسة المُجتمعات المُغلقة ـ الجيتو ـ قد بطأت هذه الحركة، ولكنه بمُجرد أن سقطت الحوائط في أوربا الغربية، فإن معدل الاختلاط لم يكفَّ عن الارتفاع، في ألمانيا، ما بين عامي: " ١٩٢١ و١٩٢٥" كان هناك من بين كل مائة زواج يهودي اثنتان وأربعون زيجة مختلطة (1)

ومن الظواهر الأخرى التي أدَّت إلى تَناقص أعداد اليهود الزيجات المُختلطة. فبعد الحرب العالمية الأولى، كان نحو ٥٠% من الزيجات اليهودية في ألمانيا (عام ١٩١٥) زيجات مُختلطة زادت إلى ٦٠% في عام ١٩٣٢. وفي عام: ١٩٢٦ عقدت في برلين ٥٥٤ زيجة مختلطة .

وفي كوبنهاجن، وصلت نسبة الزيجات المُختلطة إلى نحو ٨٦ % في الفترة بين عامي ١٨٨٠ و١٩٠٥. وفي أمستردام، وصلت النسبة إلى نحو ٧٠ % (١٩٣٠).

(1) ج. كومارس "مسألة الجِنْس في العلم الحديث " اليونسكو ، باريس ١٩٥٨ ص ٣١ نقلا عن " فلسطين أرض الرسالات الإلهية " مرجع سابق .

ومن المعروف أن معدلات الاندماج المرتفعة تؤدي إلى تَزايُد الزواج المُختلط. وفي نهاية القرن التاسع عشر، كانت عملية الاندماج في أوربا تأخذ شكل التنصُّر. وكانت نسبة التنصُّر تتفاوت من بلد إلى آخر، ووصلت إلى حدِّها الأقصى في ألمانيا حيث حقق اليهود أعلى معدلات الاندماج، وهو ما أدَّى إلى انصهارهم.(1)

وفي الولايات المتحدة لاحظت مجلة التايم ـ في العاشر من مارس ١٩٧٥ ـ أن اليهود الأمريكيين يَميلون إلى أن يتزوجوا مِن خارج مجتمعهم، فكان حوالي ثلث الزيجات مُختلطة .

فرية البقاء والاستمرار اليهوديين

ليس الزواج المختلط فقط هو الذي أفسد الجنس اليهودي بل ذوبان اليهود عبر التاريخ في الشعوب الأخرى واعتناقهم لدياناتهم ومعتقداتهم ، وكذلك تهوُّد كثير من هذه الشعوب كل ذلك قضى على أسطورة بقاء واستمرار الجنس اليهودي .

فحوالي ثلاثة أرباع اليهود الذين كانوا يعيشون في المملكة العبرانية التي أسسها داود وسليمان قد فُقِدوا وذابوا في شعوب أخرى فمن المعروف تاريخياً أنه بعد انقسام المملكة العبرانية المتحدة إلى مملكتين متنازعتين (المملكة الشمالية والمملكة الجنوبية)، انقسمت القبائل العبرانية الاثنتا عشرة إلى قسمين: عشر قبائل منها في المملكة الشمالية التي بلغ تعدادها ٨٠٠ ألف نسمة ، وقبيلتا يهودا وبنيامين في المملكة الجنوبية التي بلغ تعدادها ٣٠٠ ألف. وحينما سقطت المملكة الشمالية في أيدي الآشوريين عام ٧٢١ ق.م، هجَّر الآشوريون سكانها إلى آشور ، ولم يبق أحد في المملكة الشمالية إذ أن اليهود الذين هُجِّروا إلى آشور انصهروا وذابوا في سكانها، أما من تَبقَّوا فقد انصهروا في السكان المحليين أو فقدوا هويتهم العبرانية حيث اندمجوا في المجتمع وانصهروا فيه بالانخراط في سلك الديانات الوثنية العديدة، وقد تمت هذه

(1) د. عبد الوهاب المسيري " موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية " م٢ ج٢ الباب الخامس إشكالية التعداد . مرجع سابق .

العملية بسرعة غير عادية. ولهذا، فإن يهود بابل الذين هجَّرهم البابليون عام ٥٨٧ ق.م إلى مناطق قريبة من مناطق التهجير الآشوري لا يشيرون إلى ذلك التهجير الآشوري مع أنه لم يكن قد مر سوى نحو مائة وثلاثين عاماً فقط. ولعل سرعة ذوبان المهجَّرين يعود إلى أن المملكة الشمالية كانت قد عقدت تحالفات كثيرة فدخلت على العبادة اليهودية فيها عناصر وثنية من الديانات المجاورة . (1)

واليهود يعترفون أن معظم قبائلهم قد ضاعت " قضت الإمبراطورية الأشورية على المملكة الشمالية وسكانها ولم ينج من بطشها إلا المملكة الجنوبية وسكانها اليهود. ومنذ ذلك الوقت أصبح الناس يعرفون باليهود؛ ومنها جاءت الكلمة الإنجليزية المعروفة " Jews "ولكن ، بالرغم من ضياع معظم القبائل ، فإن التقليد اليهودي يميل حتى يومنا هذا، إلى تسمية الشعب اليهودي بإسرائيل . (2)

فأين الـ ٨٠٠ ألف يهودي الذي ذابوا في بلاد آشور وقد كانوا يمثلون نحو ثلاثة أرباع اليهود آنذاك ؟

كما أن سكان المملكة الجنوبية الذين بلغ عددهم عند اقتسام المملكة العبرية المتحدة ٣٠٠ ألف نسمة ، لم يبق منهم في المملكة الجنوبية إلا ١٥٠ ألفاً بعد السبي البابلي عام ٥٦٨ ق.م ، ولم يعد من سبي بابل – بعد عفو قورش - سوى ٦٠ - ٧٠ ألف فقط وفضَّل اليهود الباقون البقاء في بابل .

" دام السبي الإجباري في بابل قرابة خمسين عامًا .وبدخول سنة ٥٣٩ ق.م هزم قورش ملك فارس البابليين. وسمح بعودة الراغبين من اليهود إلى أرض إسرائيل (كتاب عزرا ١-٢) . عاد عشرات الآلاف في السنة التالية ، لكن كثيرين آخرين اختاروا البقاء في بابل . " (3)

---

(1) د. عبد الوهاب المسيري " موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية " م٤ ج١ الباب الخامس عشر التهجير الآشورى والبابلى . مرجع سابق .

(2) الحاخام روبن فايرستون و د. ستيفن ستاينلايت و الحاخام جيمز أ. رودين ." ذرية إبراهيم " ص ١٧

(3) نفسه ص ١٨٢

وقد شهد المؤرخ اليهودي فلافيوس جوزيف بأن اليهود فيما وراء الفرات كانوا " لا يُحْصَوْن عدَدًا ".

إن عدد سكان مقاطعة يهودا لم يتجاوز فيما بعد مرسوم قورش ما بين **٦٠ و٧٠ ألفاً** نسمة فقط . فأين باقي اليهود الذين كان عددهم إبان مملكة داود مليون وثمانمائة ألف نسمة !!

ومن الصعب أن نتصور أن بضْع عشرات مِن ألوف الأشراف المَنفيين، والذين عاد عددٌ غير قليل منهم إلى فلسطين بعد عفو قورش ـ كان من المُمكن أن يُوجدوا مجتمعًا بهذا القدْر من الأهمية، إلا أن يكون ذلك عن طريق تحوُّل عدد كبير من الناس إلى اليهودية .

ففي شمالي آشور القديمة اعْتنق ملك الأبيادين اليهودية وتبَعه عددٌ كبير من أتباعه.

ولقد فرضت الأسرة العصومية "مِن ١٣٥ ـ ٦٣ ق. م" خلال غزواتها ـ اليهودية على السُّكان المهزومين، وبخاصة الأدوميون، الذين دخلوا بالإيمان في الأسرة اليهودية، ولقد بان أنهم مُخلصون، شَدِيدُو الإخلاص، حتى إنهم قدَّموا إلى إسرائيل آخر مُلوكها الكبار، ولعِبوا دورًا من الدرجة الأولى في الحرب ضد الرومان .

وخلال القرون الثلاثة الأولى من المسيحية، وقبل أن تُصبح الكنيسة في نيقية مُضطهدة لليهود بالهرْطقة ـ حقَّق التبشير اليهودي نجاحًا كبيرًا، وقد كتَب فيلون اليهودي يقول: "إن أعرافنا تَكسب، وتَجذب إليها البرابرة والهلينيين، القارة والجُزر، الشرق والغرب، أوربا وآسيا، والأرض كلها مِن طرفٍ إلى آخر.(١)

ولقد تتابعت هذه الحركة من التحول إلى اليهودية في المقاطعات التي خلتْ من رقابة الكنيسة الرومانية، وفي مطلع القرن السادس الميلادي كان ملك اليمن ذو نواس، وجزء كبير من الشعب العربي، قد تحوَّلوا إلى اليهودية.

---

(١) برنارد لازار "معاداة السامية " باريس ١٩٨٢ ص٢٧ . نقلا عن " فلسطين أرض الرسالات الإلهية " مرجع سابق .

وفي القرن السابع، كان شعب الخَزر، ذو الأصل التركي والروسي والماجيار، قد أنشأ مملكة كبيرة على أرض أوكرانيا الحالية، وحوالي عام ٧٤٠ اعتنق ملك الخزر بولان اليهودية؛ لأنه لم يكن يريد أن يتبع البيزنطيين النصارى، ولا الفرس المسلمين، وقد استهوَى معه قسْمًا كبيرًا من شعبه، يبلغ الثلث إذا ما استرشدنا بتكوين المحكمة العليا للمملكة، حيث كان يجلس فيها يَهوديان، ونصرانيان، ومسلمان، ومشرك واحد.

ومنذ القرن الحادي عشر، حتى الثالث عشر تشتتت هذه المَملكة تحت هجَمات الروس والبيزنطيين، ولا سيَّمَا هجمات جنكيزخان، وبذلك طورد الخزر إلى بولندا، والمَجر، والترنسلفانيا، مع مُشاركيهم في الدين الذين قدِموا من ألمانيا والبَلْقان، فشكلوا المجتمعات اليهودية، الكبرى، في أوربا الوُسطى الشرقية.

والنتيجة بسيطة، لقد استهل روفائيل بتاي مقاله عن اليهود في دائرة المعارف البريطانية بهذه العبارة الثمينة: "لقد ثبت مِن كشوف الأنتروبولوجيا الفيزيقية أنه لا يُوجَد جنس يَهوديٌّ، خلافًا للفكرة الشائعة. (١) ثم أشار، وهو يُلخِّص البحوث التي أُجريت على الفصائل الدموية إلى أن "مجموعات اليهودية تحمل في دمائها اختلافات ذات اعتبار فيما بينها، كما تحمل تَشابُهًا مُذهلاً مع غير اليهود في نفس البلد، ولمَّا رجع إلى السلم البيوكيمائي الذي وضعه هيرتزفيلد ذكر أن مؤشرات الدم على طرفي السلَّم بين يهودي ألماني، وألماني يهودي تُظهر أن الفرْق طفيف: فهو ٢,٧٤ بالنسبة إلى فريق، و٢,٦٣ بالنسبة إلى الآخر، وكذلك الأمر بَيْن يهودي تركي، وتركي غير يهودي: ٩٧، بالنسبة إلى فريق، و٩٩،. بالنسبة إلى فريق آخر، فالمعامل يتراوح إذنْ بين ٤,٢% بين اليهود ومواطنيهم في بلدهم الخاص، على حين أنه يَختلف من ٣٠٠% بين اليهود مِن بُلدان مُختلفة، وتركيب الدم بصفة عامة قريب إلى درجة

(١) دائرة المعارف البريطانية ج ١٢ ص ١٠٥٤ .

التماثُل بين اليهود وغير اليهود في البلد الواحد: ١,٥٤ بالنسبة إلى اليهود الرومانيين، ١,٥٣ بالنسبة إلى غير اليهود، وهو في مراكش ١,٦٣ بالنسبة إلى الجميع. (1)

ويذكر الكاتب الفرنسي المعروف " روجيه بيريفيت " في كتابه " اليهود " أعدادًا ضخمة من اليهود الذين تنصروا من أواخر العصور الوسطى إلى عام ١٩٦٨(تاريخ تأليف كتابه : اليهود) وعماد علمه هو القوائم التي كانت الكنائس تصدرها بأسماء اليهود المتنصرين ، وكتب أخرى صدرت في أوربا كثيرة وهي قوائم بأسماء اليهود المتنصِّرين في كل بلد ومن أشهر هذه الكتب – أو أدلة اليهود المتنصرين - هو الدليل المعروف بالسيمي جو ، وهو دليل بأسماء اليهود والمتنصِّرين نشر في مدينة جوتا في ألمانيا في القرن السادس عشر ، ولو صدقنا ما يقوله " روجيه بيريفيت " في كتابه "اليهود" فإن تسعين في المائة من الفرنسيين يرجعون إلى أصول يهودية (2)

وعليه فإن كثيرًا من غير اليهود قد تهوَّدوا ، وأصبحوا يشكلون نسبة كبيرة من اليهود ، وهذا ما يؤكده العلماء اليهود : " لدينا العلم بأن بعض اليهود قاموا بالدعوة إلى الدين منذ العهود الإغريقية الرومانية - على الأقل - وقد تهوَّد عدد كبير من الوثنيين الإغريق والرومان، لكنه يبدو أن آخرين من الأمة اليهودية لم يدعموا هذه الدعوة، وبالفعل قد طورت جماعات مختلفة من اليهود مواقف مختلفة تجاه التقاليد الدينية التي رأوها حولهم تتراوح بين عدم الانحياز إلى الإدانة " (3)

كما أن هناك عددًا كبيرًا من اليهود قد تنصر أو أسلم ، " إن معظم المسيحيين والزاردشتيين واليهود الذين كانوا رعايا الإمبراطوريات الإسلامية اعتنقوا الإسلام خلال القرون القليلة الأولى بعد الفتح. " (4)

---

(1) رفائيل بتاي دائرة المعارف البريطانية ج ١٢ ص ١٠٥٤ .

(2) د. حسين مؤنس " كيف نفهم اليهود " دار المعارف ص ٢٣

(3) الحاخام روبن فايرستون و د. ستيفن ستاينلايت و الحاخام جيمز أ. رودين . وآخرون " ذرية إبراهيم " مرجع سابق ص ١٠٢ .

(4) نفسه ص ٣٩ .

ودونك أهم حالات تنصر ، وإسلام اليهود كما ذكرها علماء اليهود :

" سنة ٦١٣م يأمر سبسبوت ملك القوط المسيحي في أسبانيا أن يتحوَّل اليهود إلى المسيحية أو المغادرة . يترك بعضهم ، ويتحوَّل آخرون ، ويظل غيرهم يهوديًّا في السر " (1)

" سنة ٨٧٣م يجبر باسل الإمبراطور البيزنطي عددًا كبيرًا من اليهود على اعتناق المسيحية " (2)

" سنة ١٦٢٢م يُجْبر يهود مدينة مشهد في إيران على اعتناق الإسلام ويعرفون بالمسلمين الجدد " (3)

" سنة ١٨٢٤م يُعَمَّد كارل ماركس في سن السادسة . لقد قام أبوه بتعميد أسرته وإدخالها في المسيحية لأنه لا يستطيع ممارسة مهنة المحاماة في بروسيا (ألمانيا) (4)

كما أن اليهود الإسرائيليين – على اختلاف جنسياتهم وأعراقهم - لا يؤمنون بالشريعة اليهودية كما جاءت في التوراة فنسبة ٨٥ % منهم علمانيون لا دينيون " فحَسَب إحصاءات الحكومة الإسرائيلية فإن ١٥% فقط من الإسرائيليين متدينون " (5) . وحتى القلة الإسرائيلية المتدينة فإن معظمهم لا يؤمن بكل تعاليم التوراة إنما يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض ذلك لأنهم اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة .

{ أَ فَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} (البقرة : ٨٥)

---

(1) نفسه ص ١٨٢
(2) نفسه ص ١٨٣
(3) نفسه ص ١٨٩
(4) نفسه ص ١٩١
(5) رجاء جارودي " الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية " مرجع سابق ص ٢٨٦ .

يؤمنون بأنهم أول الموحدين ، ويفكرون بتوحيد الأمم السابقة عليهم كما نصت التوراة . يؤمنون باختيار الرب لهم ويكفرون بتجلي الرب لشعوب أخرى غيرهم . يؤمنون بعهد الرب لهم بتملكهم أرض كنعان ، ويكفرون بتحقق هذا العهد أيام يشوع بنص التوراة . يؤمنون بعهد الرب لهم بالخلاص من السبي البابلي والآشوري والعودة إلى أرض الميعاد ، ويكفرون بنصوص التوراة التي تؤكد على تحقق هذا الخلاص وحدوث العودة إبان قورش الأكبر . يؤمنون بحرص اليهود على عدم الزواج المختلط ، ويكفرون بنصوص التوراة التي أكدت على الزواج المختلط ...

إذن فالزعم بأن يهود اليوم يمثلون تجانسًا على مستوى العالم ، وأن هناك استمرارية تاريخية وثقافية بل عرْقية لليهود على مدار تاريخهم كله زعم باطل ولا أساس له من الصحة ، والتاريخ الإنساني يشهد بكذب هذا الادعاء المفترى وإليك هذه الحقائق التي تؤكد كذب هذه الأسطورة :

١- إذا كان عدد اليهود في القرن الأول الميلادي يصل إلى ما يقرب من سبعة ملايين ، فإن عددهم في القرن السابع الميلادي لم يتجاوز المليون الواحد فأين الستة ملايين يهودي الباقين في عالم اليوم ؟!

٢- بعد موت سليمان انقسمت دولة إسرائيل إلى مملكتين : شمالية ، وجنوبية ، ولقد اختفت المملكة الشمالية إلى الأبد باستيلاء (شلمانصر الخامس) ملك أشور عليها وترحيل زعمائها ورؤوس قبائلها إلى آشور وميديا (شرقي العراق) وإحلال آراميين (من سوريا) وبابليين محلهم بحسب المدونات الآشورية (٧٢١ ق.م). وهذا ما يُسمَّى «السبي الآشوري» الذي اختفت على أثره القبائل اليهودية العشر « المفقودة ».(١)

وتوراة اليهود تصرح بسبي بني إسرائيل إلى آشور ، وتوطين أقوامًا من بابل وكورث وعوَّا وحماة وسفروايم في مدن فلسطين .

(١) د . عبد الوهاب المسيري " موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية " م ٤ / ج ٣ " الآشوريين " . مرجع سابق .

" فاحتدم غضب الرب على إسرائيل ، وطرهم من حضرته ، ولم يبق سوى سِبط يهوذا . ولكن حتى سبط يهوذا لم يحفظ وصايا الرب إلهه بل نهج في طُرُق إسرائيل التي سلكتها . فنبذ الرب كل ذرية إسرائيل وأذلهم وأسلمهم ليد آسريهم وطرهم من حضرته .. فَسُبِيَ الإسرائيليون من أرضهم إلى أشور إلى هذا اليوم .. ونقل ملك أشور أقواما من بابل وكوث وعوَّا وحماة وسفروايم ، وأسكنهم مدن السامرة محل بني إسرائيل ، فستولوا على السامرة وأقاموا مدنها "(ملوك الثاني:١٧)

وعندما اقتحم نبوختنصر المملكة الجنوبية ساق اليهود أسرى إلى بابل . وبهذا فإن الوجود العبراني قد انتهى حينما وقفت المملكة الجنوبية في وجه القوة البابلية العظمى وتم القضاء عليها وتشتيتها .

وتوراة اليهود نفسها تعترف بهذا " يقول الرب إله إسرائيل : " ها أنا أجلب شرًّا على أورشليم ويهوذا فَتَطِنُّ أذنا كل من يسمع به . وسأوقع على أورشليم العِقاب الذي أوقعته بالسامرة وبأخآب ونسله . وأمسح أورشليم من الوجود كما يمسح الطبق من بقايا الطعام ثم يقلب على وجهه ليجف . وأنبذ بقية شعبي وأسلمهم إلى أيدي أعدائهم فيصبحوا غنيمة وأسرى لهم ، لأنهم ارتكبوا الشر في عينيَّ وأثاروا غضبي منذ خروج آبائهم من مصر إلى هذا اليوم . وزاد منسى فسفك دم أبرياء كثيرين حتى ملأ أورشليم من قصاها إلى أقصاها " (ملوك الثاني : ٢١)

وتوراة اليهود تعترف بخلو أرض كنعان من اليهود تمامًا .

" وهكذا سبي شعب يهوذا من أرضه أما بقية الشعب الذين تركهم نبوخذناصر ملك بابل في أرض يهوذا .. فهب جميع الشعب ، صغيرهم وكبيرهم ، ورؤساء الجيوش ، وهربوا إلى مصر خوفا من انتقام الكلدانيين " (ملوك الثاني : ٢٥)

٣- وعندما أعاد قورش كثيرًا من المسبيين إلى فلسطين مرة ثانية كان هؤلاء العائدون قد نسوا العبرية ـ المصدر الأساسي لهويتهم الدينية ـ كما كانوا قد تأثروا

تأثراً عميقاً بالتراث الديني في بابل . وتَغيرت الهوية لليهود من هوية ذات طابع ديني قومي تعبِّر عن نفسها من خلال الدولة إلى هوية دينية ثقافية تعبِّر عن نفسها من خلال مؤسسات مختلفة خاضعة للقوة الإمبراطورية .

٤- إن معظم اليهود المعاصرين إنما هم من يهود الخزر الذين ينتمون إلى أعراق وشعوب وقبائل متعددة ، ويغلب على الدراسات التاريخية أن تنسب يهود الإشكناز إلى الخزر، ولكن قد يكون أيضا كثير من الإشكناز من الأوروبيين الأصليين وليس فقط من الخزر، فالمعلومات والمصادر التاريخية المتاحة لا تكفي لتأكيد مقولة حصر انتساب الأشكناز إلى الخزر ولكن المؤكد هو أنهم ليسوا من بني إسرائيل (1) .

وعليه فإننا نقول مطمئنين :

١- لا يوجد يهودي خالصٌ ولا يهودي عالميٌّ بل هناك يهود أمريكيون ويهود صينيون ويهود عرب ...

٢- أن هناك تَنوُّعا هائلاً بين أعضاء الجماعات اليهودية على المستوى العِرْقي، فهناك يهود بيض ، ويهود سود ، ويهود صفر، وتختلف أحجام الرأس باختلاف انتماء اليهودي كما يظهر الاختلاف والتباين على المستوى الثقافي وهكذا.

٣- أن كلمة "يهودية" التي كانت تشير إلى نسق ديني يتسم بحد أدنى من الوحدة أصبحت تشير إلى عدد هائل من الحركات الدينية التي لا يربطها رابط .

كل هذا يجعلنا نقول مطمئنين إن يهود اليوم لا علاقة لهم عرقيًّا ببني إسرائيل أو الذين تحدثت عنهم التوراة لكن اليهود الصهاينة يفترضون ما يسمونه الاستمرار اليهودي ، ليكملوا دجلهم الديني والسياسي .

وحتى لو كان البقاء اليهودي معجزة وحقيقة- فرضًا - فهو لا يعطي صاحبه أية حقوق . فبقاء اليهود لا يعطي يهود العالم أية حقوق في الاستيطان في فلسطين، حتى إن أرادوا ذلك وأصروا عليه أو شعروا بحاجة نفسية جامحة إليه .

(1) لمزيد من التفصيل عن يهود الخزر راجع د.م. دنلوب " تاريخ يهود الخزر " دار قتيبة للنشر، دمشق .

ولو أن كل شعب سكن في بلد ما في زمن ما طالب بأحقيته في هذا البلد لاشتعلت الحروب في كل بلاد العالم .

لقد لجَأ القادة الصهيونيون الإسرائيليون إلى هذه الأساطير كيْمَا يُخفوا غزوتهم الاستعمارية تحت قناع "عودة" اليهود، الذين ليْس لأغلبيتهم الساحقة أيُّ جَدٍّ أصليٍّ من هذا البلد، إن أوضح نتائج هذه الخديعة قد صاغها تُوماس كيمان في قوله: "إن الصهيونيين أوربيون، وليس هنالك مُطلقًا أيُّ رباط بَيولوجي، أو أنثروبولوجي بين أجداد اليهود في أوربا، وبين قدامى الأسباط العبرانيين". (1)

والرجاء ممن يردد أساطير اليهود أن يقرأ أولاً توراتهم فهي تُكذب هذه المزاعم ، فإن أصر على هذه المزاعم فعليه أن يعترف بتحريف التوراة ، ووجب عليه أن يثبت لنا بالدليل القاطع بأن هذه المزاعم ليست من النصوص المحرفة !!

الاستمرار اليهودي من منظور إسلامي

إن كلمة يهودي ليست الكلمة الوحيدة التي تدل على اليهود في القرآن الكريم ، فقد وردت عدة مصطلحات أخرى :

بني إسرائيل [٤١ مرة] .

اليهود [٨ مرات] .

هُود [٣ مرات] .

الذين هادوا [٩ مرات] .

أوتوا الكتاب [١٢مرة] .

أهل الكتاب [٣١ مرة] .

ومن الواضح أن القرآن الكريم لا يفترض وجود استمرارية بين يهود العالم، ولذا وردت هذه المصطلحات غير المترادفة ليعبِّر كل مصطلح عن وضع زماني ومكاني

(1) توماس كيمان " العرب " ط لستيل بروان اندسي" بوسطون ١٩٧٥ ص ٢٥٣ . نقلا عن " فلسطين أرض الرسالات الإلهية " مرجع سابق .

مختلف . فالقرآن يُفرِّق تفرقة واضحة بين اليهود الذين عاشوا في الجزيرة العربية وتعامل المسلمون معهم في فترة البعثة المحمدية من جهة وبين بني إسرائيل من جهة أخرى .

فمصطلح بني إسرائيل جاء مخصصاً للحديث عن يهود عصر موسى وعيسى وأنبياء بني إسرائيل، ولم يُستخدَم هذا اللفظ تخصيصاً ليهود عصر البعثة المحمدية إلا في موضعين (من المواضع الإحدى والأربعين) وهما :

{ سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللّهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُ فَإِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ } (البقرة : ٢١١)

{ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ }(النمل:٧٦)

وواضح أن في هذين الموضعين إحالة إلى موروثات قديمة يمكن أن يتناقلها اليهود، أيًّا كانت أصولهم العرْقية .

التناقض بين مفهوم الاستمرار اليهودي ومفهوم الفطرة في الإسلام

افتراض الاستمرار اليهودي، البيولوجي والثقافي، يتناقض مع إحدى القيم الحاكمة الكبرى في الإسلام، ونقصد به مفهوم الفطرة . فالإنسان ـ حسب التصور الإسلامي ـ يُولد على الفطرة، وإن كان ثمة صفة وراثية فهي الفطرة الإنسانية والاستعداد لعمل الخير، وهو مفهوم يضع على الفرد عبء المسئولية الخلقية ويطرح إمكانية التوبة الدائمة (من جانب المخلوق) وإمكانية المغفرة (إن شاء الخالق) .

ومن ثم فإن فكرة الاستمرار اليهودي تُشكّل سقوطاً في المنطق العنصري العلماني الشامل الذي يرى الإنسان محكوماً بموروثه البيولوجي أو الاقتصادي أو العرْقي أو مجموعة من الحتميات المادية الأخرى . ومن الواضح أن النص القرآني حذر من ذلك ففرَّق بين اليهود عموماً من ناحية وبين الصالحين والطالحين منهم من ناحية

أخرى، وحكم على كل فريق منهم بما يستحقه من خير أو شر، مُلتزماً في ذلك طريقة العدالة والصدق . يقول تعالى :

{ لَيْسُواْ سَوَاء مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللّهِ آنَاء اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ * يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَـئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوْهُ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ}(آل عمران : ١١٣-١١٥) (١)

يقول تعالى في حق أهل الكتاب : ليسوا متعادلين، ولكنهم متفاوتون في الصلاح والفساد والخير والشر. وإنما قيل: ليسوا سواء، لأن فيه ذكر الفريقين من أهل الكتاب اللذين ذكرهما الله في قوله: {ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرًا لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون} (آل عمران: ١١٠) ثم أخبر جل ثناؤه عن حال الفريقين عنده، المؤمنة منهما والكافرة، فقال: {ليسوا سواء} أي ليس هؤلاء سواء، المؤمنون منهم والكافرون ." (٢)

والحقيقة أن أسطورة البقاء والاستمرار اليهوديين هما محض خرافة لا يصدق بها من آتاه الله ولو درهمًا من عقل أو مثقالاً من فهم فبنو إسرائيل اختلطوا بشعوب العالم وذابوا فيهم تزوجوا منهم وزوجوهم ، ومنهم من تنصر ، ومنهم من أسلم ، ومنهم من ألحد ، وكثير من غير اليهود تهوَّد فقد كان اليهود في العصور القديمة يسعون جاهدين لتهويد غيرهم والقرآن الكريم ينص على هذا فيقول :

{ وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُواْ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ }(البقرة : ١٣٥)

ولقد نص القرآن الكريم صراحة على أن إبراهيم وإسحق ويعقوب(إسرائيل) والأسباط (بني إسرائيل) لم يكونوا يهودًا كما يزعم يهود اليوم .

(١) د. عبد الوهاب المسيري " موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية " د . عبد الوهاب المسيري م٤ ج١ الباب الأول : إشكالية التاريخ اليهودي . مرجع سابق .

(٢) تفسير الطبري ج ٧ ص ١١٨

{ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَـــقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللّهِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ } (البقرة : ١٤٠)

فالخطاب القرآني يفرق بين بني إسرائيل (أبناء يعقوب) وبين يهود المدينة على عهد النبي ﷺ.

والإنجيل نص أيضا على هذا بل نص على حرص اليهود الشديد على تهويد غيرهم " الويل لكم أيها الكتبة والفريسيين (علماء اليهود) المراءون فإنكم تطوفون البحر والبر لتكسبوا متهودا واحدا فإذا تهود جعلتموه أهلا لجهنم " (متى : ٢٣).

أحق الناس بميراث إبراهيم

وإذا كانت رابطة العقيدة والإيمان هي الأساس الذي يجتمع عليه المسلمون مهما اختلفت أجناسهم وألوانهم، فإن المسلمين هم أحق الناس بميراث الأنبياء – بما فيهم أنبياء بني إسرائيل - فهؤلاء الأنبياء هم مسلمون موحدون حسب الفهم القرآني، وانظر إلى قوله تعالى :

{ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } (آل عمران : ٦٧)

ومن الواضح أن الآية الكريمة تنفي نسبة إبراهيم عليه السلام إلى اليهود أو النصارى . فإبراهيم وغيره من الأنبياء عليهم السلام في نظر القرآن الكريم شخصيات إسلامية دعت إلى الإسلام ولم تدع إلى اليهودية أو النصرانية أو إلى غير ذلك من ديانات ولذلك نجد القرآن الكريم يستخدم كلمة " مسلما " في هذه الآية وكلمات " مسلمين " في آيات أخرى للإشارة إلى أن الإسلام هو دعوة ودين هؤلاء الأنبياء .(١)

(١) د. محمد خليفة حسن " دراسات في تاريخ وحضارة الشعوب السامية القديمة " ص ٣٧ ، ٣٨

يقول تعالى :{وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ {١٢٧} رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ }(البقرة :١٢٧ ، ١٢٨)

{ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ * إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ * أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَـهَكَ وَإِلَـهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَـهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ } (البقرة : ١٣٠- ١٣٣)

إذن دين الله تعالى واحد به أرسل جميع الأنبياء والرسل وهو" الإسلام " ، وما تم ابتداعه من مسميات أخرى إنما تبغي ربط بعض الأنبياء بشعب أو بعنصر معين وهذا مرفوض تماما في نصوص القرآن الكريم ، فكلمة الإسلام تعبير عن جوهر الدين الذي دعا إليه الأنبياء وهو التعبير عن خضوع واستسلام الإرادة الإنسانية للإرادة الإلهية من خلال مبدأ الطاعة للإله الواحد الخالق ، وهو جوهر لا تعبر عنه كلمة " يهودي " أو " نصراني " . (1)

وبشكل عام فأمة التوحيد هي أمة واحدة من لدن آدم عليه السلام حتى يرث الله الأرض ومن عليها، وأنبياء الله ورسله وأتباعهم هم جزء من أمة التوحيد، ودعوة الإسلام هي امتداد لدعوتهم، والمسلمون هم أحق الناس بأنبياء الله ورسله وميراثهم

{ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَـذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَاللّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ } (آل عمران : ٦٨)

(1) نفسه ص ٣٨

فرصيد الأنبياء هو رصيدنا، وتجربتهم هي تجربتنا، وتاريخهم هو تاريخنا، والشرعية التي أعطاها الله للأنبياء وأتباعهم في حكم الأرض المباركة المقدسة هي دلالة على شرعيتنا وحقنا هي هذه الأرض وحكمها .

نعم، لقد أعطى الله سبحانه هذه الأرض لبني إسرائيل عندما كانوا مستقيمين على أمر الله وعندما كانوا يمثلون أمة التوحيد في الأزمان الغابرة، ولسنا نخجل أو نتردد في ذكر هذه الحقيقة وإلا خالفنا صريح القرآن، ومن ذلك قول موسى عليه السلام لقوله :

{ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاء وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّن الْعَالَمِينَ * يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ المُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ وَلاَ تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ } (المائدة : ٢٠ ، ٢١)

غير أن هذه الشرعية ارتبطت بمدى التزامهم بالتوحيد والالتزام بمنهج الله، فلما كفروا بالله وعصوا رسله وقتلوا الأنبياء ونقضوا عهودهم وميثاقهم، ورفضوا اتباع الرسالة الإسلامية التي جاء بها محمد ﷺ والذي بشرَّ به أنبياء بني إسرائيل قومهم {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } (الأعراف : ١٢٧)

{ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ } (الصف : ٦)

فلما فعلوا ذلك حلت عليهم لعنة الله وغضبه .

{ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللّهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاء بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً {١٥٥} وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى

مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا {١٥٦} وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينً } (النساء : ١٥٥– ١٥٧)

وقال تعالى { قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ {٥٩} قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللّهِ مَن لَّعَنَهُ اللّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُوْلَـئِكَ شَرٌّ مَّكَاناً وَأَضَلُّ عَن سَوَاء السَّبِيلِ } (المائدة : ٥٩، ٦٠)

أما الأرض فهي أرض الله تعالى يورثا من يشاء من عباده ، وهذا ما أخْبَرَتْهُم به رسلهم ، ودونوه في كتبهم (قبل تحرفها) .

{ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللّهِ وَاصْبِرُواْ إِنَّ الأَرْضَ لِلّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ } (الأعراف : ١٢٨)

فعباد الله الصالحون هم ورثة الأرض ، والعاقبة لهم في الأولى والآخرة .

{ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ * إِنَّ فِي هَذَا لَبَلاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ } (الحج : ١٠٥، ١٠٦)

يقول تعالى مخبرًا عما حَتَّمَهُ وقضاه لعباده الصالحين، من السعادة في الدنيا والآخرة، ووراثة الأرض في الدنيا والآخرة، كقوله تعالى :

{ إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ } (الأعراف:١٢٨)

وقوله تعالى :

{ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ } (غافر:٥١)

وقوله تعالى : { وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم

مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ } (النور:٥٥)

وأخبر تعالى أن هذا مكتوب مسطور في الكتب الشرعية والقدرية فهو كائن لا محالة؛ ولهذا قال تعالى: { وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ }[1]

وكما أن العقيدة وثيقة الارتباط بنواميس الكون الكبرى ، فكذلك ملابسات هذه العقيدة في الأرض . فالسنة التي لا تتخلَّف أن يغلب الحق في النهاية وأن يزهق الباطل ، لأن الحق قاعدة كونية وغلبته سنة إلهية : { بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ } (الأنبياء : ١٨).

وأن يحل الهلاك بالظالمين المكذبين ، وينجي الله الرسل والمؤمنين : { ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاء وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ } (الأنبياء : ٩) .

***

[1] تفسير ابن كثير ج٥ ص ٣٨٤